ابــن رشــد (الحفيد) طبـيـبـاً

د.مـحـمود الحاج قاسم محمد
بـاحث في تاريخ الطب العربي الإسلامي
طـبـيـب أطـفـال ـ الـمـوصـل

حياة ابن رشد في سطور[1]

ولد ونشأ أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد (الحفيد) في قرطبة سنة(٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م) كان أبوه وجده من أئمة المالكية ومارسا القضاء في قرطبة . وهو يحمل نفس اسم ولقب جده .

تلقى العلم والفقه على أبيه محمد والحافظ أبي محمد بن رزق ، وأبي القاسم ابن بشكوال ، وأجاز له هو وأبو عبد الله المازري . ودرس الفلسفة من كتب أرسطو طاليس خاصة على يد أبي بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة . ودرس علم الطب على أبي مروان بن جُرّيول البلنسي وأبي جعفر أحمد بن هارون الترجالي ، وقيل أنه شهد ابن زهر واستمع إلى دروسه .

تنقل ابن رشد بين اشبيلية ومراكش التي كانت عاصمة الغرب الإسلامي تحت حكم الدولة الموحدية . وفي سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م قدمه الفيلسوف الطبيب أبو بكر ابن طفيل إلى الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن . وفي هذه السنة أسندت إليه ولاية قضاء اشبيلية . وفي عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م ولي قضاء قرطبة .

وفي عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م صدر إليه الأمر بالذهاب إلى مراكش ليخلف ابن طفيل في رئاسة أطباء البلاط حيث حضي برعاية الخليفة أبي يعقوب يوسف ، وفي ولاية أبي يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠ – ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ – ١١٩٨ م) نعم ابن رشد بالرعاية ردحاً من الزمن ، وبقي يتابع نشاطه العلمي إلى أن حل عام ٥٩٢ هـ / ١١٩٥ م فأصابته نكبة عظيمة وامتحان عسير بتدبير بعض الحاقدين ، فنفي ابن رشد إلى بلدة اليسانة Lucena قريباً من قرطبة ، وأتلفت كتبه الفلسفية ، وبعد مرور ثلاث سنوات أدرك الخليفة أنه كان مخطئاً في حق ابن رشد فخلى سبيله وأمره بالعودة إلى مراكش لاستئناف نشاطه ، غير أنه لم يعش طويلاً حيث أدركته الوفاة عام ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م فدفن أولاً في مراكش ثم نقل إلى قرطبة حيث دفن في مقبرة أسلافه .

ممارسة ابن رشد لمهنة الطب

يعترف ابن رشد بدون تردد أنه تنقصه التجربة المكتسبة من مزاولة الطب . يقول بصراحة نادرة المثال : " وهذا الجزء من الطب (= المزاولة لمهنة الطب) هو الذي أرى أنه يعوقني عن الكمال في هذه الصناعة . وذلك أني لم أزاولها كبير مزاولة اللهم إلاّ في نفسي أو في أقرباء لنا وأصدقاء . ولم أكن أيضاً أتولى علاجهم بل كنت أتفحص ما يعرض لهم من التغاير عند معالجة الأطباء لهم ، في وقتنا ، الذين هم أبعد

خلق الله عن هذه الصناعة ما خلا هؤلاء القوم بني زهر ، وبخاصة أبا العلاء وابنه أبا مروان ، هذا المعاصر لنا ، فإن هؤلاء القوم كما قلنا هم على الطريقة الطبية "
(كتاب شفاء الأمراض فصل ٤٠) . ومع هذا النقص لا يطعن في مصداقيته هو لم يكن يمارس الطب كمهنة يتكسب بها ولكنه كان على مستوى من المعرفة بما أهله لأن يتفحص ويراقب ما يفعله أطباء عصره " [٢] .

مؤلفاته الطبية

لقد خلط ابن أبي أصيبعة بين مؤلفات ابن رشد الجد وابن رشد الحفيد فنسب إلى هذا كتباً في فروع الفقه هي في الحقيقة من تأليف جده أما مؤلفات ابن رشد الحفيد[٣] في مجال الطب فهي تربو على العشرين وهي تتفاوت بين كتاب ضخم إلى رسالة أو مقالة مختصرة ، ندرجها فيما يلي مع توسع في دراسة اثنين منها :

١ . شرح الأعضاء الآلمة .
٢ . تلخيص أول كتاب الأدوية المفردة لجالينوس .
٣ . تلخيص الإسطقسات لجالينوس .
٤ . تلخيص العلل والأعراض لجالينوس .
٥ . شرح كتاب الإسطقسات لجالينوس .
٦ . كتاب التعرف لجاليونس .
٧ . كتاب القوى الطبيعية لجالينوس .
٨ . الو... في الطب (يوجد (خرم) في مخطوطة الإسكوريال ، ذهب ببعض حروف أو كلمات العنوان) ، ولعله (الوجيز في الطب) كما نظن .
٩ . كتاب الحميات . ويوجد شرح له في الإسكوريال برقم (٨٧٩) وهو لجالينوس .
١٠ . كلام على مسائل من العلل والأعراض .
١١ . مراجعات ومباحثات بين أبي بكر بن طفيل وابن رشد في رسمه للدواء .
١٢ . مسألة في نوائب الحمى .
١٣ . مقالة في المزاج الإسكوريال (٨٧٩) .
١٤ . مقالة في حميات العفن .
١٥ . مقالة في الترياق Antidote توجد في الإسكوريال برقم (٨٧٩) .
١٦ . تلخيص كتاب المزاج لجالينوس .
١٧ . تلخيص النص الثاني من كتاب حياة البرء لجالينوس .
١٨ . تلخيص كتاب الحميات لجالينوس .
١٩ . جملة من الأدوية المفردة . توجد نسخة منه في الفاتيكان برقم (٣٥٧) .
٢٠ . رسالة في التفحص عن أسباب طول العمر وقصره .
٢١ . شفاء السقام ومبرئ الآلام . منه نسخة في المكتبة التيمورية برقم (١٠٩) .

٢٢ . شرح أرجوزة ابن سينا ، قال عنه ابن زهر الأوسط : (إن شرح ابن رشد لأرجوزة ابن سينا في الطب ، وهي المعروفة أيضاً بالألفية كان أفضل من كتاب القانون في الطب لأبن سينا).
وقد ترجم الشرج إلى اللاتينية ، فأصبح من أبرز المراجع في أوربا خلال العصور الوسطى ، بل وخلال العصور الحديثة التي سجلت هذا التفوق في إقامة تمثال للفيلسوف الكبير ابن رشد في كلية الطب بـ مونبليه . وفي هذا الشرح ، اقترح ابن رشد : (تبديل الهواء في الأمراض الرئوية) ، وقد أشار إلى جزيرة العرب وبلاد النوبة كمراكز شتوية [٤].
٢٣ . **كتاب الكليات** : يقول ابن أبي أصيبعة :" وله في الطب كتاب الكليات ، وقد أجاد في تأليفه ، وكان بينه وبين أبي مروان بن زهر مودة . ولما ألف كتابه هذا في الأمور الكلية قصد من ابن زهر أن يؤلف كتاباً في الأمور الجزئية لتكون جملة كتابيهما ككتاب كامل في صناعة الطب " فيقول ابن رشد : " فمن وقع له هذا الكتاب دون هذا الجزء ، وأحب أن ينظر بعد ذلك إلى الكنانيش فأوفق الكنانيش له الكتاب الملقب بالتيسير الذي ألفه في زماننا هذا أبو مروان بن زهر ، وهذا الكتاب سألته أنا إياه وإنتسخته .... وهو كما قلنا كتاب الأقاويل الجزئية التي قلت فيه ، شديد المطابقة للأقاويل الكلية " [٥].
وفي دراستنا لهذا الكتاب لابد من وقفة تأمل وتدقيق ، وذلك لأن هذا الكتاب باتفاق مؤرخي الطب يعتبر أهم مؤلفات ابن رشد في الطب .
فقد جاء حاوياً لنظرياته التي خالف فيها السابقين كما وضم أفكار متميزة في الطب ، نوجز فيما يلي البعض منها .

أولاً – تناوله للطب بأسلوب علمي

يؤكد الكثير من الباحثين بأن كتاب (الكليات) في الطب هذا واحد من أوائل الكتب التي تناولت علم الطب بأسلوب علمي خاضع للبحث والاستقراء والمناقشة ، فقد جاء كتابه تلخيصاً وافياً ومركزاً لما هو معروف في ممارسة الطب في زمانه ، ولم يكن عمله نقلاً حرفياً عن الآخرين ، بل حاول أن يبرز دوره كطبيب مجتهد وقام فيلسوفنا في هذا الكتاب – كما سنرى – بـ نقد الأسس التي كان يقوم عليها الطب في زمانه تفكيراً وممارسة . ولعل هذا هو ما جعل هذا الكتاب يفرض حضوره في الجامعات الأوربية إلى حدود القرن التاسع عشر وبذلك فإن كتاب الكليات في الطب لأبن رشد يفرض نفسه كأول كتاب يطرح للنقاش موضوع التفكير العلمي في الطب [٦].

ثانياً – صناعة الطب هي صناعة فاعلة عن مبادئ صادقة

يقول ابن رشد في مقدمة كتابه الكليات : "فإن الغرض من هذا القول أن تتثبت هاهنا من صناعة الطب جملة كافية – على جهة الإيجاز والاختصار – تتضمن أصول الصناعة ، وتكون كالمدخل لمن أحب أن يتقصى أجزاء الصناعة ، وكالتذكرة

أيضاً لمن نظر في الصناعة ، ونتحرى في ذلك الأقاويل المطابقة للحق ، وإن خالف ذلك آراء أهل الصناعة (= صناعة الطب)" .
ويعرف ابن رشد الطب تعريفاً لم نعثر له على مثيل أو أصل عند من سبقه ممن كتبوا في الطب . يقول : " إن صناعة الطب هي صناعة فاعلة عن مبادئ صادقة ، يلتمس بها حفظ صحة بدن الإنسان وإبطال المرض ، وذلك بأقصى ما يمكن في واحد واحد من الأبدان ... ".
ويشرح ابن رشد مكونات (الصناعة الفاعلة) أو العلم التطبيقي ، فيقول :" ولما كانت الصنائع الفاعلة ، بما هي صنائع فاعلة ، تشتمل على ثلاثة أشياء : أحدها معرفة موضوعاتها والثاني معرفة الغايات المطلوب تحصيلها في تلك الموضوعات ، والثالث معرفة الآلات التي بها تحصل تلك الغايات في تلك الموضوعات ". انتهى قول ابن رشد : " ولاشك أن القارئ يلاحظ معنا أننا إزاء نظرة جديدة للطب وإزاء تقسيم جديد ، ينقلنا إلى أفق جديد يختلف تماماً عن الأفق الذي تعرفنا عليه من خلال المجوسي وابن سينا .
الطب علم تطبيقي ، والعلم التطبيقي لابد له من موضوع يعرفه معرفة علمية ليمارس فيه التطبيق ، ولابد له من غاية يراد تحصيلها في الموضوع ، ولابد له كذلك من وسائل تتم بها عملية التحصيل هذه " .
وهذا يعني :
(أن الطب في نظر ابن رشد صناعة فاعلة ، أي علم تطبيقي ... وهذا العلم التطبيقي قوامه (أقاويل كلية) هي (أصول الصناعة) ، و (أقاويل جزئية) تخص علاج مرض مرض في عضو عضو . ومن هنا قد لا نخطئ إذا قلنا بعبارة عصرنا : صناعة الطب (أو فن الطب) قسمان : قسم هو علم يدرس ، كما هو الشأن الدروس العامة التي يتلقاها الطالب في كلية الطب. وقسم هو تطبيق لتلك الدروس أثناء فترة التدريب في المستشفيات والملاحظات السريرية).
وهذا يعني أن التصور الذي شيده ابن رشد عن علم الطب هو أقرب ما يكون من تصورنا الحديث لهذا العلم [٧].

ثالثاً – مكانة ابن رشد الطبيب في أوربا من خلال كتابه الكليات

(لقد كان لأبن رشد الطبيب تأثير بين في تطور الطب من الجانب النظري وذلك أنه – من جهة – مهد السبيل لفهم نظريات الإغريق في الطب ، بتلخيصاته النقدية لمؤلفات جالينوس وغيره ، هذه التلخيصات التي ترجمت إلى اللاتينية والعبرية ، ومن جهة أخرى ألقى ابن رشد نظرة فاحصة على أقاويل الإغريق في كثير من المسائل الطبية وأبدى فيها رأياً مخالفاً أو رسم لبعضها منهجاً جديداً كما هو الشأن في الكليات) [٨].
في مقال كتبته دانيال جاكار (مديرة أبحاث في المعهد التطبيقي للدراسات العليا بباريس) بعنوان (تأثير الطب العربي في الغرب في القرون الوسطى) تقول عن

كتاب (الكليات) :(لقد أثار هذا الكتاب العديد من المجادلات التي سمحت للأطباء الغربيين بتجديد مذهبهم) .
(وبصفته داعماً للأفكار الأرسطية فقد ساهم كتاب الكليات Colligetفي وضع مسائل أساسية بشكل جديد) .
(وقد بلغ تأثير ابن رشد في زعزعة التصورات الطبية التي كانت سائدة أن خص شارح كتاب القانون لأبن سينا جاك ديبار المتوفى سنة ١٤٥٨ م ابن رشد بوصف خاص غني بالدلالة . وهكذا فبينما قال عن الرازي أنه (المختبر الأرفع) و (الطبيب الأكبر) والأكثر خبرة بعد أبقراط وجالينوس) . وقال عن ابن ماسويه أنه (خبيرنا ومبشرنا) الأعلم من الجميع في وصف الأدوية ، وصف ابن رشد الطبيب بـ (العصا القاتلة) و (الرجل الذي أفسد جميع الأطباء) .
(إن قانون ابن سينا كان له نوع من الهيمنة على الأوساط الطبية في أوربا خلال القرن الثالث عشر ، وأن ردود أفعال مناوئه له بدأت تظهر عندما أخذ الدارسون يكتشفون نصوص جالينوس مما أتاح لهم مقابلة الأعمال العربية بالمصادر الجالينوسية . وفي هذا الإطار يدخل هذا الرد العنيف الذي تعرفنا عليه ضد ابن سينا . لقد كانت دعوة إلى الرجوع إلى المرجعية الطبية الأساسية : جالينوس الذي وصل إلى الحقيقة المتينة التي لم يفهمها ابن سينا الذي ... جعل القسم الأعظم من الأطباء اللاتين حمقى) .
(إن ابن رشد قد أعلن في مقدمة كتابه أنه سيتحرى فيه الأقاويل المطابقة للحق وإن خالف ذلك آراء أهل الصناعة (= صناعة الطب) . وأهل الصناعة الذي يخالفهم في هذا الكتاب ليس ابن سينا فهو يتجاوزه ولا يذكره إلاّ نادراً وفي أمور جانبية . إن الذي سيخالف ابن رشد ويدخل معه في نقاش من أول الكتاب إلى آخره هو جالينوس بالذات ، لقد اعتبر ابن رشد جالينوس الشخص الوحيد الجدير بأن يعتمد وأن يناقش في آن واحد . وواضح أن مناقشة فيلسوف قرطبة لجالينوس ومخالفته في مسائل أساسية من مذهبه الطبي معناه خلخلة وزعزعة البديل الذي لجأ إليه معارضو ابن سينا في أوربا والعمل على تجاوزه .
لقد كان ابن رشد من هذه الناحية فعلاً (عصا قاتلة) للتقليد سواءً تقليد ابن سينا أو تقليد جالينوس).
(ومن هنا لابد أن ينظر إليه على أنه أفسد جميع الأطباء فالشيء الذي يعني أنه زعزع الفكر الطبي الأوربي وفي القرون الوسطى ودفعه في اتجاه الثورة على التقليد ، اتجاه فتح باب الاجتهاد فيه . وذلك إلى درجة جعلت البعض يربط بين ابن رشد واكتشاف هارفي للدورة الدموية الكبرى ، أما الصغرى فشرف اكتشافها يعود لأبن النفيس)[٩].

رابعاً – نماذج من مخالفاته لجالينوس

إن الموضوعات الطبية التي يخالف فيها صاحب الكليات ما قرره جالينوس كثيرة لا يتسع المجال للتعرض لها جميعاً ، ولذلك سنقتصر هنا على المسائل التي اتخذت فيها المخالفة طابعاً خاصاً ، وهي تلك التي أثار ابن رشد حولها نقاشاً عميقاً :

أ – أيهما أهم : دم الشرايين ؟ أم دم الأوردة ؟ وبشكل مختصر (جالينوس يرى أن ثمة مصدران للدم الذي في الجسم ، دم الأوردة مصدره الكبد الذي هو عنده معدن الروح الطبيعي وهو الغذاء القريب (المباشر) للأعضاء ، تحمله إليها الأوردة ، فأعضاء الجسم تتغذى من دم الكبد . أما دم الشرايين فمصدره القلب . وهو يحمل إلى أعضاء الجسم (الروح الغريزي) . وهو الروح الحيواني الذي به يكون الإحساس وبه يميز الحيوان عن النبات . أما ابن رشد الذي يتبنى وجهة نظر أرسطو فهو يرى أن الأعضاء تتغذى بالدمين معاً ، وأن الدم الآتي من الكبد نيء ، بينما الآتي من القلب ناضج وبالتالي فهو الذي يكون منه جوهر الغذاء وحقيقته)[١٠].

ب – لمن الرئاسة في التغذية للقلب أم للكبد : إن النظرية الطبية القديمة التي شيدها جالينوس كانت تنص على أن الكبد هي التي تغير الغذاء حتى يصير دماً ، ثم توزعه على جميع أعضاء البدن فهي من هذه الناحية الرئيسة على جميع آلات الغذاء من المعدة والأمعاء ... الخ ، ومن هنا ارتأى جالينوس أن لها الرئاسة العامة على جميع القوى الغاذية في البدن بما في ذلك القلب .

أما ابن رشد فيعترض على ذلك ويقول أن الكبد رئيسة فعلاً على آلات الغذاء ، كالمعدة والأمعاء والطحال .. الخ ، ولكن ليس لها الرئاسة العامة بل هي للقلب .

وهنا (لابد أن نسجل أن إلحاح ابن رشد على أن الرئاسة العامة هي للقلب ، وليست للكبد كما يقول بذلك جالينوس ، معناه أن المحرك الأول للدم في البدن هو القلب)[١١].

ج – هل التنفس أمر إرادي أم طبيعي ؟ وهذه مسألة أخرى – لها بدورها علاقة مباشرة بالدورة الدموية – اعترض فيها ابن رشد على جالينوس والأطباء .وباختصار : جالينوس يقول أن التنفس فعل إرادي ، وبالتالي مصدره الإرادة والأمور الإرادية راجعة للدماغ والعصب والعضل .أما ابن رشد فيرى أن التنفس فعل يصدر منا بالطبع شأنه شأن النبض ، بدليل أن حركة الرئة بالتنفس مواكبة لحركة النبض وكأنهما حركة واحدة ، إن لم تكونا كذلك بالفعل .

د – أقواله في جهاز الدورة الدموية : إن ابن رشد يرفض رأي جالينوس من أساسه ، ويرتب على ذلك نظرياته في جهاز الدورة الدموية معتمداً على العلم الطبيعي وعلى التشريح والحس .

(فقد عرف هذا الفيلسوف الأندلسي ، قبل هارفي بقرن ، وظيفة الصمامات الكائنة في القلب والأوعية الدموية ، كما أعلن قبله بطلان نظريات جالينوس في تولد الدم من

الكبد ، ولاحظ أن الشرايين هي التي تغذي الجسم بالدم النقي ، وأن ما يجري في الأوراد فهو – دم غير نضج – وأن مطية الروح الحيوانية تسري في الأوعية مع الدم مؤكداً أنه لاشيء في أعضاء البدن غير قوة التغذي وقوة الحس ، بل أنه أعلن أن تقسيم القوى في الإنسان إلى طبيعية وحيوانية ونفسانية هو تقسيم غير صحيح .
فهذه نقاط التقاء رئيسية بين الفيلسوف الطبيب القرطبي والعالم الإنجليزي تضاف إلى نقاط التقائهما في تشريح جهاز الدورة الدموية فضلاً عن ملاحظات ابن النفيس واستنتاجاته العلمية في هذا الصدد ، ومن المستبعد أن يكون هذا الالتقاء قد حدث بمحض المصادفة ، وذلك أن التاريخ كالعلم نفسه ، حلقات متماسكة وأطوار متتابعة ، ولسنا نشك بعد هذا في أن ابن رشد هو الرائد الذي مهد السبيل لاكتشاف الدورة الجهازية (الدموية) الكبرى ، وأن ابن النفيس هو مكتشف الدورة الرئوية)[١٢].

الهوامش

(١) اقرأ عنه : ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبي العباس أحمد : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، إصدار دار الفكر ، بيروت ١٩٥٦ . ج ٣ ، ص ١٢٢ – ١٢٦ .الخطابي ، محمد العربي : الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ ص ٣٢١ – ٣٢٩ .حمارنة ، الدكتور سامي خلف: تاريخ تراث العلوم الطبية عند العرب والمسلمين ، جامعة اليرموك ١٩٨٦ ص ٣٧٤ . قمير ، يوحنا : سلسلة فلاسفة العرب ، ابن رشد ، دار المشرق ط ٢ ، ١٩٨٦ ، ص ٧ – ١٥ .
(٢) ابن رشد ، أبو الوليد محمد بن أحمد : الكليات في الطب ، دراسة الجابري ، الدكتور محمد عابد : مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٩٩ ، ص ٥٩ .
(٣) السامرائي ، ، عبد الجبار محمود : براعة ابن رشد الفيلسوف في ميدان الطب (مقال) ، مجلة الدواء العربي العدد ٢ / ١٩٩٩ ص ١٢٩ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .
(٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ج ٣ ، ص ١٢٢ – ١٢٣ .
(٦) ابن رشد : الكليات ، ص ١١ – ١٣ .
(٧) المصدر نفسه ، ص ٤٠ – ٤١ ، ٤٢ ، ٤٧ .
(٨) الخطابي : الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية ، ج ١ ، ص ٣٢٩ .
(٩) ابن رشد : الكليات (مصدر سابق) ص ٥١ – ٥٣ .
(١٠)المصدر نفسه ، ص ٦٢ .
(١١)المصدر نفسه ، ص ٦٤ ، ٦٥ .
(١٢)الخطابي : (مصدر سابق) ص ٣٤٦ .